تزييف المخطوطات والمؤلفات

د. يونس أحمد السامرائي
كلية الآداب – جامعة بغداد

بعد أن أصبحت عملية التأليف والنسخ عملية تجارية عمد غير واحد ممن دفعه الطمع أو الخوف من حسد الآخرين أو نيل الشهرة على حساب السطو على جهود الآخرين العلمية أن يضع أسماً غير أسمه على مؤلفه أو يزين فيما يقع بين يديه من المخطوطات .

وكان هذا التزييف يتناول أموراً كثيرة كتزييف اسم المؤلف أو عنوان الكتاب أو الكتاب برمته ، بعد أن يعمد إلى التنفيق والترقيع من هنا وهناك ، وكأنه بعمله هذا يستطيع طمس الحقيقة عن أسم المؤلف الحقيقي وعنوان كتابه ، أو طمس الحقيقة عن محتويات الكتاب برمته .

ويبدو أن هذا العمل الشائن كان قديماً ، أي منذ بدأت المؤلفات أو المخطوطات تظهر بكثرة في المجتمع .

ويحدثنا الجاحظ عن ذلك حديثاً طويلاً فيقول :

(وقد عرفت حقيقة ما قال يحيى بن خالد بالتجربة والابتلاء ، وإني ربما ألّفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه ، والرسائل والسيرة ، والخُطَب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم ، بالحسد المركّب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً يملك معه القدرة على التقديم والتأخير ، والحطّ والرقع ، والترغيب والترهيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتْهم حيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلف له فهو الذي قصدوه وأرادوه ، وإن كان السيد المؤلّف فيه الكتابُ نحريراً نقاباً ، ونقرياً بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتْهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك الكتاب وألّفوا

من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدَوه إلى ملك آخر ، ومتُّوا إليه به ، وهم قد ذمّوه وثلبوه لمّا رأوه منسوباً إليَّ وموسوماً بي .

وربما ألّفتُ الكتاب الذي هو دونَه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدَّمني عصره مثل أبن المقفع والخليل ، وسَلْم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد ، والعتّابيّ ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب، لها لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيّرونه إماماً يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويردونه عني لغيرهم من طلاّب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ويأتمُّ بهم قومٌ فيه ؛ لأنه لم يترجم باسمي ، ولم يُنسب إلى تأليفي .

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفاً كأنه متنُ حجرٍ أملس ، بمعانٍ لطيفة محكمةٍ ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعن الحاسدين إنّ أنا نسبتُه إلى نفسي ، وأحسد عليه من أهُمُّ بنسبته إليه لجودة نظامه ، وحسن كلامه ، فأُظهره مُبْهماً غفلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرف وُضّاعها ، فينهالون عليه انهيال الرمل ، ويستبقون إلى قراءته سباق الخيل يوم الحلْبة إلى غايتها[١].

(وأما الكتب التي نسبت إلى الجاحظ وليست له فكثيرة ، منها :

كتاب الأبل . كتاب التاج أو أخلاق الملوك . كتاب تنبيه الملوك والمكايد، كتاب الحنين إلى الأوطان ، كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والآثار ، كتاب سلوة العريف بمناظرة الربيع والخريف . كتاب المحاسن والأضداد ، كتاب الهدايا)[٢] .

ومن الشروح التي نسبت إلى غير أصحابها شرح ديوان المتنبي المسمى بـ (التبيان في شرح الديوان) ، فقد نسب الشرح خطأ ، ولعله مما زيّف أيضاً إلى العكبرى ، وما زال الشرح مشهوراً له ، مع أنه – كما حقّق ذلك علمياً أستاذنا

المرحوم الدكتور مصطفى جواد في بحث مطوّل لشارح آخر هو أبن عذلان الموصلي[٣] .

وقد وقفت بسبب قيامي في تحقيق عدد متواضع من المخطوطات أو بسبب تدريسي مادة منهج التحقيق مدة طويلة على شيء من هذا التزييف الذي أشرت اليه قبل قليل ، من ذلك :

تزييف عنوان كتاب (الإماء الشّراعر) لأبي الفرج الأصفهاني ، فقد كتب على غلاف المخطوطة الفريدة عنوان آخر هو : (رِي الظمأ في من قال شعراً من الإما) ، ونسب الكتاب أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، العالم الزاهد المعروف .

ومعلوم أن تزييف العنوان (يكون أما لفقد الورقة الأولى من المخطوطة أو انطماس العنوان ، وأحياناً يثبت على النسخة عنوان ولكنه يخالف الواقع : إما بداعٍ من دواعي التزييف ، وأما لجهل قارئ ما وقعت إليه النسخة مجردة من عنوانها فأثبت ما خاله عنوانها) [٤] .

وبعد الرجوع إلى عوامل كثيرة : كنصوص الكتاب الواردة أكثرها ونصها وأمثلتها تقريباً في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، والأسلوب المتبع في تأليف الكتاب ، وأسانيد الأخبار ، وورود أسم الكتاب (الإماء الشّراعر) المنسوب إلى الأصفهاني المذكور في أكثر من مصدر . وغير ذلك من الأدلة ظهر لنا تزييف العنوان[٥] .

ويبدو أن الذي أوهم الناسخ هو كنية الرجلين (أبو الفرج) ، ولم يفطن إلى أن محتويات الكتاب لا يمكن أن تكون لكتاب يؤلفه الزاهد الكبير أبن الجوزي وإنما هي مما يتجه إليه الأصفهاني في مؤلفاته ، ولاسيما الأغاني .

ومن المخطوطات التي زيّف عنوانها ومادتها تزييفاً مقصوداً ، مخطوطة كتب على الصفحة الأولى منها (هذا كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للفاضل الأديب أبي أحمد الموصلي رحمه الله) .

ومعلوم أن للسري الرفاء الموصلي كتاباً بهذا الاسم ، وقد حقّق أكثر من مرة ، وحقق القسم الأول منه في العراق المرحوم الدكتور حبيب الحسني سنة ١٩٨٣ هـ ، كما حققه كاملاً المرحوم الدكتور نوري القيسي والاستاذ هلال ناجي، وما زال مهيئاً للطبع في إحدى دور النشر في بيروت .

لقد جاءني قبل سنوات من وفاته المرحوم الزميل نوري القيسي بمخطوطة عنوانها كما تقدم ، وهي منسوبة إلى أبي أحمد الموصلي على أنها نسخة فريدة ، وأنها تختلف عن نسخة السري المشار إليها ، وعهد بها إليّ لأشاركه في عملية التحقيق ، وقمت بنسخ المخطوطة وأستغرق ذلك مدة ليست بالقصيرة ، بذلت فيها من الجهد والوقت الشيء الكثير ، وحين أتممت النسخ بدأت عملية التحقيق والتصحيح والتخريج والعريف بالأعلام الواردة والآليات والأحاديث والأمثال إلى غير ذلك مما تستوجبه عملية التحقيق العلمي .

وكان مما في هذه المخطوطة القصيدة التي لا تخلو من غرابة ، لما أنعقدت عليه من الألفاظ والمعاني ، وهي مشهورة في كتب الأدب ومطلعها :

صوت صفير البلبلِ هيّج قلب الثمل

وكنت قد قرأت هذه القصيدة في كتاب (حلْبة الكميت) للفواجي قبل سنوات، فأردت أن أقابل بينها وبين ما في الحلبة ، فإذا هي كاملة في المخطوطة والحلبة، وقد أوقفني ذلك وجعلني أفكر حول قدم هذه القصيدة الواردة في هذا الكتاب المنسوب للسري الرفاء المتوفى سنة (٣٦٢هـ) ، أي القرن الرابع الهجري مع أن الشك خامرني في صحة ما نسج حولها من خبر يعود إلى الخليفة المنصور .

بدأت التحقيق ، وكان للكتاب مقدمة قصيرة هي :

(الحمد لله الذي أدار كؤوس المحبة على أهل الأدب ، فمالوا طرباً بقـــهوة الأنشاء وأطلع نجوم حباب المودة في سماء الطرب ، فأستعتوا بأنوارها الزاهـــرة عن وجه الرشاء أحمده حمد من مزج صافي حبه في فكر أباريق المعاني ، فغذيت مشاربه ، وحسنت آدابه ، ورشد اسلاف النصاحة بمحبة قتلى شوقه وذوقه ، فقال: هذا عذب فرات سائغ للشاربين بأخوان على سرر متقابلين ، وأشكره شكر من جلا عرائس معانيه في حلل ألفاظ البلاغة بالأمعان ، على منصـــة صـــدور ســـطوره الطروس الأذان ، وأشهد أن لا آله إلا الله الملك الرؤوف المنان ، وأن محمداً عبده ورسوله سيد ولد عدنان ، صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابـــه أولـــى الفضـــل والعرفان ، وسلّم كثيراً ما كرّ الجديدان .

وبعدُ :

فقد سألني من مخالفته لا تستطاع ، وحقه أن يجاب ويطاع ، أن أجمع لـــه كتاباً حاوياً في (طريقه) طاويا بذكر من شغف بالمحبة والأحـــباب ، والمشـــموم والشراب من أهل الذوق والآداب ، وما يتعلق بهما مـــن الحكايـــات الظريفـــة ، والنوادر اللطيفة ، والأشعار الشائقة والأبيات الفائقة ، والأمثال الغريبة ، والحكـــم العجيبة ، ومنثور مرقوم ، مسجع ومنظوم ، تحفة للأحباب ، نزهـــة للألبـــاب ، وسميته بـــ (المحب والمحبوب في ذكر المشموم والمشروب) فأقول قبل الشـــروع في ميدان النيه ، من يأتي من الباب يأتيه ، ثم يأتي الباب الأول وتليـــه الأبـــواب الأخرى ، وعددها خمسة وعشرون بابا .

أما مقدمة كتاب (حلبة الكميت) فتأتي على هذا النحو :

(الحمد لله الذي أدار كؤوس الأدب على أهل الذوق فمالوا طربـــاً بقـــهوة الأنشاء وأطلع نجوم حبابها في سماء البلاغة فاستغنوا بأنوارها الزاهرة عن صبـــح الأعشي . أحمده حمد من مزج صافي فكره برائق المعـــاني ، فعذبـــت مشـــاربه وحسنت آدابه ، ورشف سلاف الفصاحة في مجالس أنسه فتلى (كذا) لسان ذوقـــه هذا عذب فرات (كذا) سائغ شرابه ، وأشكره شكر من جلّى عرائس معانيـــه فـــي

خلل (كذا ولعلها بالماء) فحظى من بديع البيان بعروس الأفراح ، وأدمن على منادمة كتب الأدب ، وما برح من سواء سطورها وبياض طروسها في اغتباق واصطباح ، واشهد أن لا آله إلا الله وحده لا شريك له الذي ألهمنا أن نسمع القول فنتبع أحسنه ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أختاره لنفسه وميّز به بين السيئة والحسنة ، وصلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة يبؤهم بها في الفردوس سكنه .

وبعدُ :

فقد سألني من أمره مطاع ، ومخالفته لا تستطاع ، أن أجمع له من مقاطيع الشرب نبذة رفيعة البز ، رقيقة الحاشية ، وأقتطف له من حدائق الآداب زهرة قطوفها دانيه ، ينزه طرفه في جنات من نخيل وأعناب ، ويمتع ذوقه بفاكهة كثيرة وشراب ، فلم أجد بدأ من مطاوعته ، ولا سبيلاً إلى مخالفته ، كيف وأنا أطوع له من النفس للشهوة ، والكأس للقهوة ، وجمعت له في هذه الأوراقْ مارق وراق ، وأبرزت في وصف الكميت شعر من تفحل وأمسى وهو إلى الغايات سباق ... وسميته (حلبة الكميت) ... ورتبته على خمسة وعشرين باباً وخاتمة .. ثم يذكر الأبواب وعناوناتها ...[٦]

الباب الأول في المحب والمحبوب :

(في ذكر المحب والمحبوب ، وشروط الأصدقاء ، وأهل المودة ، وخلان الوفاء وما يتعلق بمجالسهم ، وآداب الصحبة والندمان ، وحسن معاشرة الإخوان ، وكيفية اتخاذ الخلان .

والباب الثاني :

(في العشق والمغرمين وكراهية العشق) .

والباب الثالث :

(في الأشربة والشراب وما يتعلق بمجالس المحبين والأحباب وذوي الألباب) وفي الباب الأول والثاني وصفحة من الباب الثالث نقل المؤلف نقلاً يكاد يكون حرفياً عن محاضرات الأدباء ، وبعد هذا ينقل المؤلف نقلاً تاماً ما في حلبة الكميت من الأبواب وعنواناتها وموادها دون تغيير أو تبديل .

هذا التزييف والتلفيق من هنا وهناك ، كان دأب من ضعفت نفوسهم وضحلت ثقافاتهم ، فحاولوا السطو على ما يبذله سواهم من جهود علمية مضيئة تتطلب الوقت الطويل ، والعلم الغزير . وهذا النوع من السطو كما قلت كان من امتهنته فئة لأتمت إلى العلم ولا إلى الخلق ، وأنه عمل يستحق التنديد والمآخذة ؛ لأنه يوقع الآخرين الانزلاق والسقوط في مهاوي الرذيلة العلمية والخلقية .

ويتضح أن التزييف كان كما ذكرنا متعمداً وأن المزيف لم يكن جاهلاً في مادة الكتاب الأصلية ، ولكنه عمد إلى إبعاد عنوان الكتاب الأصلي وهو (حلبة الكميت) وإحلال عنوان آخر محله وهو (المحب والمحبوب والمشموم والمشروب)، ولكي يخفى سطوه أو جريرته عمد إلى أن يحل با بين هما الأول والثاني محل بأبي الحلبة ، إمعاناً في التزييف مع إبقاء أبواب الحلبة الأخرى ومادتها كما هي .

أما البابان الأول والثاني فقد أغار على كتاب (محاضرات الأدباء) للراغب وجعلهما في صدر الكتاب المزيف .

وبما يجدر ذكره أن الطبعة الأولى من حلبة الكميت كانت في سنة ١٢٧٦هـ في حين جاء في آخر صفحة المخطوطة :

(تم كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب للأديب الفاضل الكامل أبي أحمد الموصلي رحمه الله) .

وكان الفراغ منه في مستهل محرم الحرام من شهور سنة خمسة عشر (كذا) وألف من هجرة من له العز والشرف .

ومعنى هذا أن التزييف كان قبل نشر الحلبة ، ومن يدري فلعل المزيف كان يظن أن أحداً لم يعثر على مخطوطة الحلبة الأصلية فينشرها ، لتكون الدليل القاطع على التزييف .

ويبدو أن المزيف وهم أن بفعله هذا يمكنه تغطية جريمته العلمية ، وطمس معالمها عن الآخرين ، بيد أن الحقيقة تظهر وأن أختفت إلى حين .

الهوامش :

١ - رسائل الجاحظ ١/٣٥٠-٣٥١ .

٢ - الجاحظ دراسة عامة لجورج غريب ٤١ وأنظر : أمراء البيان ٢/٣٦٠ ، ومعجم الأدباء ١٦/١٠٦ وفيه : (وقد أضيف إليه كتاب سموه كتاب الأبل ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه) .

وانظر : تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون ٤٣ ط٢ وفيه : (وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفها ، والكتاب الذي تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذي نسب إليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف ، ومن أمثلة ذلك كتاب نسب إلى الجاحظ وعنوانه (كتاب تنبيه الملوك والمكايد) وهذا الكتاب زيف لا ريب في ذلك ، فأنك تجد من أبوابه باب (نكت من مكايد كافور الاخشيدي) و (مكيدة توزون بالمتقى لله) ، الاخشيدي كان يجب بين سنتي ٢٩٢ ، ٣٥٧ ، والمتقى لله كان يحيا بين سنتي ٢٩٧ ، ٣٥٧ فهذا كله تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات من السنين (تحقيق النصوص ونشرها ط٢ ، ٤٣) .

٣ - في التراث العربي ٢/٢٣٩-٢٦٠ .

٤ - تحقيق النصوص ونشرها ٤٠ .

٥ - أنظر : مقدمة المحققين ٩-١٢ .